عقود الجُمان في المعاني والبيان
بشرح عبد الرحمن العُمري الشهير بالمُرشديّ

أ. د. مازن المبارك(*)

هو كتاب في علوم البلاغة، ألّفه الإمام السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ.

وشرحه شرَف المدرّسين، عبد الرحمن بن عيسى العُمَري الشهير بالمرشدي، مفتي مكة، المتوفَّى سنة ١٠٣٧هـ.

قرأ متنه وقابلهُ بأصوله أ. د. عيسى علي العاكوب، عضو مجمع اللغة العربية بدمشق، وأستاذ البلاغة والنقد في جامعة حلب.

وصدر عن دار نينوى في دمشق سنة ١٤٣٨هـ-٢٠١٧م في جزأين كبيرين وملحق للفهارس سمّاه «بيانات مادّة الكتاب».

بلغت صفحاته مع ملحقه (١٤٦٦) ستًّا وستين وأربعمئة وألف صفحة.

* * *

أهدى د. العاكوب الكتاب إلى أم المدائن «مكّة»، وافتتحه بما سمّاه «كلمات للبدء» بيّن فيها أسباب رغبته في إخراج الكتاب، وهي كلّها أسباب علميّة وجيهة، وتربويّة تعليميّة، وخُلُقيّة يتصف بها المخلصون من العلماء

(*) عضوُ مجمع اللغة العربية بدمشق.

والمعلِّمين. وهي قبل ذلك وبعد ذلك متّصلة بشرح وتقريب ما لا يُفهم إعجاز الأسلوب القرآني، ولا تقام الحجّة له إلّا بإدراكها واستيعابها؛ لأنَّه رأى في الكتاب مرآة لصفحات من كنوز التراث البلاغي التي استطاع الشارح أن ينقلها إلينا وأن يسخّرها لما أراد من بيان وإيضاح. وبيّن المحقق في هذه الكلمات ما يتطلّبه التحقيق من حديث عن النسخ التي قام عليها العمل، والخطوات التي سارها، والمنهج الذي اتبعه في التحقيق والتعليق والمقابلة بين النسخ.

وأتبع «الكلمات» بما عنوانه: «مجازان إلى عَتبة حقيقة الكتاب».

وكان الأول منهما بعنوان: «البيّنات وأولو النُّهى: البلاغة القرآنية والعقل العربي».

وكان كلام د. العاكوب هنا على اللغة وأسلوب التعبير بها، وعلى العقل وقدرته، وعلى الصلة بين العقل المفكر واللسان الناطق، وعلى أثر البيئة في مدى انطلاق الفكر إلى المسمَّيات وإلى المجرَّدات... وعلى غير ذلك من هيمنةِ الأسلوب القرآني وما يحتوي عليه، وما يؤدّي إليه، ومن إرادة إلهية في خَلق الإنسان وجعله مهيَّئًا لإدراك لغة قرآنية جاءت في ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ [العلق: ١-٥] وما تلاها.. ولعلّ من الصعب تقطير المقطَّر، وتلخيص الأفكار الرفيعة من عقلية وروحية وإيمانية بكلمات، ولطالما رأيت شروحًا أرادت شرح الجميل فشوّهته، أو أساءت إلى بلاغته! فرأيت أن أترك التلخيص لأقول: إن من يقرأ كلام الدكتور العاكوب يدرك لماذا يشتدّ الهجوم على اللغة العربية؟! ولماذا تحارب بالاتهامات الباطلة، وبالضرائر من أجنبيّات وعاميّات، ولماذا تحرّف الأساليب، وتُخرج المصطلحات والمفردات عن

دلالاتها، ولماذا تُستبعد كل كلمة من العربيّة لها صلة بالقرآن أو قرابة بتاريخ إسلاميّ، أو كانت ذات إيحاء إيمانيّ، أو كانت باعثًا على ذكريات تنبعث في النفوس فتضيئها كالشموس!!

لن أقول عن كل ذلك في هذه العجالة شيئًا، ولكن اقرأ لتفهم ولتدرك ولتعي ولينكشف عن عينيك الغطاء، ولتدرك أثر اللغة في صنع الإنسان! و﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٠].

ستدرك أن الجمال البلاغيّ خُلق العقلُ قادرًا على إدراكه، إذا توافقا صفاءً ونقاء، وأنه قادر على أن يرشدك إلى التعقّل وإلى الفهم وإلى الخير وإلى الحقيقة، إنه يجعلك تدرك لماذا سمع العربي أول مرّة قوله تعالى: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ [الحجر: ٩٤]. فصدع واستسلم وقال: إنّه كلام يُسجد له!!

وأما المجاز الثاني فكان عن الشارح والكتاب:

والشارح هو شرف المدرّسين[1]، عبد الرحمن بن عيسى العُمري الشهير بالمُرشديّ، مفتي مكة، وقد تحدّث عنه الدكتور العاكوب حديثًا استوفى فيه كل ما يتّصل بحياته ونسبه وعلمه وأعماله وشيوخه وآثاره وشعره وآراء العلماء وأقوالهم فيه، وأنهى ذلك بالحديث عن مقتله سنة ١٠٣٧هـ، وكان له عن الأسرة المرشدية حديث مفصّل ذكر فيه بعض من شهر من علمائها.

وأتبع ذلك بالحديث عن كتاب المرشديّ وهو شرح عقود الجُمان، فقدّم لنا في حديثه طرفًا من مراحل التأليف في تراثنا البلاغيّ، وكان على

---

(١) لُقّب به لأن عدد حروفه بحساب الجُمَّل يطابق تاريخ ولادته، وهي عادة عند المشارقة يحفظون بها التواريخ.

النحو الآتي:

١- عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ): ألّف «أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز» للكشف عن وجه البلاغة في النص المعجز بأسلوبه.

٢- الزمخشري (٥٣٨هـ) يريد في «الكشاف» أن يكشف الحجة القائمة في المعاني والبيان في الكتاب المعجز.

٣- السكاكي (٦٢٦هـ): قنّن البلاغة في الجزء الثالث من «مفتاح العلوم»، بعد أن كانت ذوقًا وتجليًّا جماليًا، فأراد وضع هيكل يضبطه العلم بما فيه من حدود وتعريفات وأصول وتفريعات.

٤- القزويني (٧٣٩هـ): لخّص الجزء الثالث من «مفتاح العلوم» في «الإيضاح»، ثم لخصه فكان «تلخيص الإيضاح» خير المختصرات جمعًا وتصنيفًا. وهو الذي بنى أستاذنا التنوخي كتابه في فنون البلاغة عليه.

٥- السيوطي (٩١١هـ): نظم «تلخيص القزويني» في أرجوزة في ألف بيت وأربعة أبيات وسمّاها «عقود الجُمان في المعاني والبيان».

٦- المرشدي (١٠٣٧هـ) شرح أرجوزة السيوطي شرحًا مفصلًا مطوّلًا ممزوجًا؛ والممزوج هو الذي يمزج فيه كلام الشارح بكلام المؤلّف.

ولهذا الشرح صفات مميّزة كثيرة عدّدها د. العاكوب، منها:

١- اعتماد الشارح على كتب عدد من علماء البلاغة السابقين.

٢- شرح الكثير من المفردات اللغوية والمصطلحات.

٣- مراعاة أحكام الذوق في إدراك الجمال البلاغي وإيحاءاته.

٤- يقف أحيانًا عند أوجهٍ نحوية مختلفة عازيًا أكثر الآراء إلى أصحابها.

٥ً- له شخصيته الواضحة في المواقف والآراء العلمية الكثيرة سواء أكانت للسيوطي صاحب العقود أم كانت لمن ينقل عنهم أو يستشهد بأقوالهم.

٦ً- يكاد يكون معجمًا للمصطلحات البلاغية، وحسبك أن أسماء فنون البديع بلغت عنده حدًّا قل نظيره عند غيره.

وقد أضاف المحقق ذكر أبيات الأرجوزة في بدء كل موضوع.

ويبدأ الكتاب بعد ذلك بالفنّ الأول وهو «علم المعاني». وقد سار الشرح فيه على نَسَق جُمع فيه البيت المنظوم من قول السيوطي، وتلاه الشرح الممزوج وهو شرح مزج فيه عبارة النظم بالشرح، وعلى طريقته في تفسير المفردات وتوضيح الدلالات. والتنبيه على كثير من الأمور اللغوية والنحوية والإعرابية والخلافية إذا وجدت... وكان المحقق يلاحق ذلك في حواشيه معرّفًا بالأعلام، معلِّقًا على ما يحتاج إلى تعليق أو تعقيب، بادئًا في كل فقرة جديدة ببيت الناظم أو أبياته المشروحة، ليتمّ في ذهن القارئ الرَّبط بين النظم وشرحه، مع الضبط والعزو إلى المصادر التي يذكرها الشارح.

ولا ينسى الشارح في البدء أن يقف عند (الرجز) ما دام عقود الجمان رجزًا، فيشرح معنى (الأرجوزة) في حديث صرّفي ولغوي ودلاليّ يشمل ما يذكر من إعراب مفردات ومعاني أدوات ودلالات مفردات.

وفي مقدمة الفصل كلام طويل على الفصاحة والبلاغة وما قيل فيهما... وفيه الكثير كما في الشرح كلّه ما لا يخطر ببال أحدنا أن يسأل عنه! كقوله وهو يتحدّث تحت عنوان (مقدمة): عن الفرق بين مقدّمة (العِلم) ومقدّمة (الكتاب)، وفيه مجموع لعدد من الآراء عن معنى كل من الفصاحة

والبلاغة وما قيل فيهما، في كلام يستغرق صفحات! حتى إذا وصل إلى الصفحة الثمانين وصل إلى الحديث عن (علم المعاني) فضبط حدّه وعرّف مفرداته، وبيّن الفرق بين (العلم) و(الفن) على طريقة شرح المفردات ومناقشة دلالاتها وعرض آراء العلماء في حدودها وتعريفاتها.

وتتابع صفحات الكتاب في نسق واحد يبدأ بالعنوان ثم ذكر أبيات الأرجوزة، ويتلو ذلك الشرح الذي يستوعب كل ما سألت أو نسأل أو يمكن أن تسأل عنه من صرف وإعراب ودلالة مفردة وعلاقة أجزاء في جملةٍ أو تركيب، جاء على النحو الذي وصفه محققه د. العاكوب بقوله:

«إن هذا الكتاب عُصارةُ أذهان خمسة مفكرين كبار في تاريخ التفكير البلاغي في حضارة الإسلام: عبد الرحمن المرشدي (ت١٠٣٧هـ) وعبد الرحمن السيوطي (ت٩١١هـ) ومحمد بن عبد الرحمن القزويني (ت٧٣٩هـ) ويوسف السكّاكي (ت٦٢٦هـ) وعبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، وقد تناول الخمسةُ موضوعًا واحدًا هو: أسرار البلاغة، وأدلّة الإعجاز، وقوانين الكلام المتَّصف بالحُسن والبهجة والقَبول والسحر، في اللغة العربية، وقد أطلّ عقلُ العلّامة المُرشدي من علٍ على حَصاد عقول سابقيه العلماءِ الأعلام، وأضاف إليه ممّا عنده هو، وممّا عند غيره الشيءَ الكثير. وكل ذلك لكي يجيء عِقد الجُمان الذي صنعه الإمام السيوطي للبلاغة العربية عِقدًا تزدان به معانيها وبيانُها وبديعها في كل زمان، عِقدًا يُظهر عملَ العبقرية السّالكة لسبيل ربّها ذليلةً مُغتبطة بخدمة كتابه، وإظهار مزايا تراكيبه وتصاويره وتعابيره، وبخدمة اللغة العربية التي آلت آيات جمالِ الكتاب الإلهي أن تكون آياتِ جمالٍ لها، إذ طالما شرُف الملبوس باللّابس

وافتخر الوعاء الحاوي بما احتواه من النفائس، على طريقة قول شاعر الإسلام الكبير محمد إقبال:

أنا أعجميُّ الدنِّ، لكنْ خمرتي صُنعُ الحجاز وكرمِها الفَيْنانِ
إنْ كان لي نَغَم الهنودِ ولَحنُهم لكنَّ هذا الصوتَ من عدنان

والحمد لله ربِّ العالمين».

وإتمامًا للفائدة أضيف إلى الحاشية (١) في ص (ج ج) من المقدمة، والمتعلّقة بكتاب الشرف الوافي ما يأتي:

كتاب (الشرف الوافي في علم الفقه والعروض والتاريخ والنحو والقوافي) لإسماعيل بن أبي بكر المقرئ (٧٥٤-٨٣٧هـ) له عدّة طبعات:

الأولى في الهند، لم أرها ولا أعرف تاريخها. والثانية في مطبعة العزيزية بحلب سنة ١٢٩٤هـ. والثالثة في المطبعة المصرية بمصر سنة ١٣٠٩هـ، والرابعة في الدوحة، وهي الطبعة القطريّة الأولى سنة ١٣٩٦هـ و١٩٧٦م، والخامسة وهي طبعة قطرية، كُتِب عليها (الطبعة الرابعة)! صدرت في سنة ١٤٠٠هـ و١٩٨٠م، كما جاء في مقدمة محققها الشيخ إبراهيم عبد الله الأنصاري عن مطبعة مؤسسة دار العلوم في الدوحة. وهي أجمل الطبعات، وقد ضبط نصّها الشيخ الأنصاري وجعل كلَّ علمٍ فيها مميَّزًا بلونٍ، مما يسهّل قراءة كل علمٍ على حدة.

ويمكن القول بعد ذلك إنه اجتمع في «عقود الجمان» صورتان، إحداهما الصورة التراثية للمؤلفات في الشروح الممزوجة التي يتعاقب فيها الكلام، ويمتزج كلام المؤلف بكلام الشارح، ويمتلئ كلام الشارح بكلام من يستشهد بآرائهم وأقوالهم من العلماء، في عرض وردّ ونقد ومناقشة.

وفي زحمة من علوم مختلفة من لغة وصرف ونحو ومنطق...

والثانية هي الصورة الحديثة التي تتجلّى في عمل المحقق ضبطًا للنص وإعجامًا وشكلًا للمشكل من مفرداته، والتعليق أو التعقيب على ما يحتاج من النصّ إليه، وعزو ما فيه من نقول أو وشواهد إلى مصادرها في المكتبة العربية، وتخريج للأقوال وصحّة نسبتها إلى أصحابها. والدلالة على مواضع الآيات القرآنية من سورها، والأحاديث النبويّة من مصادرها.. وبذلك تبقى الصلة بين قديم التراث والإخراج الحديث لكنوزه.

إن الكتاب مكتبة في التثقيف البلاغي نشأةً وتعليلًا وتاريخًا ومراحل، وإلقاءً للضوء على أبرز علماء البلاغة وكتبهم ومناهجهم من ذوقية جمالية وتقعيديّة تصنيفيّة، وجمعًا لمعظم ما جاء فيها من أصول وفروع أو علوم وفنون ومصطلحات وشواهد وأمثلة. وفي تحقيقه والعمل على إخراجه وتحشيته والتعليق على ما فيه... تبدو جهود الدكتور العاكوب ودقته في متابعة المؤلف والشارح، ومراعاته متطلَّبات القارئ للأخذ بيده إلى تيسير فهم ما جاء في النصّ وشرحه.

كما تظهر في مقدمة الكتاب والتمهيد بمجازيه إلى حقيقته خصائص أسلوب الدكتور العاكوب المتميز بمفرداته وتعبيراته وإيحاءاته واستلهاماته، وبكل ما يتّصل بحياة الإنسان الروحيّة أو الروحانية وما تطلقه من تجليّات تنتظم العلم والفن والجمال والخَلْق في وحدة متناسقة يشدّ بعضها أزر بعض لتقف أمام القارئ فكرةً وحجَّةً وحقيقة وواقعًا... وذلك بعض ما تميّز به الأسلوب العاكوبي في آثاره تأليفًا وترجمة وتحقيقًا.

وهل لنا أن نقول اليوم: إن متابعة السلسلة البلاغية واللغوية، بل سلسلة

الكشف عن الإعجاز اللغوي في الكتاب العربي المعجز، وهو الأمر الذي وقف عنده الجرجاني في كتابيه «أسرار البلاغة» و«دلائل الإعجاز»، وتابعه أئمة من أولي النُّهى، يشرحون ويوضّحون، لم يَخلُ منهم عصر، كلٌّ على قدر طاقته، وإنه كان ممن ساهم في هذا البيان اليوم الدكتور العاكوب الذي جرّد قلمه ليزيد الأمر وضوحًا في الرّبط بين العقل الذي خُلق أصلًا للعقل والرَّبط حتّى سُمّي عقلًا، وبين الكلام الموحَى به للإبلاغ والدعوة ليكونا جميعًا وسيلة إلى إدراك بعض الحجّة البالغة وراء الكلام المعجز الذي ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾ [الإسراء: ٨٨]، ولو حاولوا الإتيان بمثله جيلًا بعد جيل ونظروا ونظّروا لعاد نظرهم منكفئًا حسيرًا، وكان تنظيرهم عن الإدراك قصيرًا ومقصورًا، ولآمنوا بأن القرآن من عند الله ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ [النساء: ٨٢].

ألم يأنِ للبشر اليوم أن يدركوا أن العقل مخلوق؟ وأن الخالق سبحانه وتعالى هو القادر المالك لما خلق، وأنه أراد الهداية للبشر فدلّهم على طريقها، وأن الوحي فوق العقل، وأن العقل طريق إلى إدراكه وفهمه وتدبّره؟ أفلا يعقلون؟ أليس في هذا السؤال المكرَّر في القرآن إشارة واضحة إلى أن العقل السليم إذا استخدم بسلامة نيّة وصدق طويّة يوصل صاحبه إلى الهدى؟!

لقد كان كلام الدكتور العاكوب في هذا الموضوع ما إن يُقرأ بالنظر أو بالبصر حتى يلوح منه ما يُدرك بالبصيرة، ولكنْ ببصيرة نفس نقيّةٍ تقرأ وتسمع باحثة عن الحق والحقيقة لتعلم وتؤمن، لا نفس معاند يقرأ أو يسمع

ليعاجز! ألم يقل ربّنا جلّ جلاله: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]؛ إنه علمٌ خُلق وخُلق له أهله، ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ [الليل: ١٢]. ولكنه هدى لمن يطلبه ويبحث عنه، ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن: ١١]. وأما المعاجزون فقد قال سبحانه فيهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ [سبأ: ٣٨]. وقد عرفنا في تاريخنا هؤلاء وأولئك من الوفود التي كانت تلقى رسول الله ﷺ، وتسمع منه بعض ما أوحي إليه، ثم تنصرف بين مؤمن مصدِّق، ومعاند مكابر.

وبعدُ، فعقود الجمان كتاب جدير بأن يقرأه المختصّون بالبلاغة وتاريخها وتعليمها، وبأن تحرص عليه مكتبات المعاهد والكلّيات وأقسام اللغة العربيّة، وهي الأقسام التي عرف أكثرها كتاب المحقق الدكتور عيسى العاكوب «المفصَّل في علوم البلاغة».

رحم الله العلماء الأعلام وأثاب خير الثواب الدكتور العاكوب الذي ذكّرنا بهم وأحياهم بعلمهم، وذكّرنا بالمحقّقين الأثبات وبمن عرفنا منهم، ولن ننسى فضلهم كالأساتذة الشيخ محمد أحمد شاكر، ومحمود محمد شاكر، ومحمد علي النجار، ومحمود الطناحي، ومحمد أحمد الدالي وأمثالهم... وأين اليوم من يملك لغتهم ويحقق تحقيقهم ويفري فريَهم؟!

* * *